فن الطباق في أدب التوقيعات

الدكتورة منيرة فاعور*

الملخص

راقني جمال (التوقيعات) وما امتازت به من ثراءٍ عظيم في مفرداتهـا، وإتقـانٍ محكم في تراكيبها، وزُخرف أخّاذ في أشكالها، وجمال موسيقي في جرسها، كلّ كلمة فيها آخذة برقاب الكلمة الأخرى في صنعة أدبية متقنة.

ولعل السبب في ذلك يعود إلى طرافة هذا الفن النثري وتنوعـه، فـضلاً عـن صدورها عن أُناس لهم إسهامات كثيرة في تثبيت أركان الدولـة الإسـلامية، وبنـاء حاضرها، وصياغة مستقبلها.

ومع أهمية هذه (التوقيعات) لم أجد من تعرّض لدراسـتها مـن ناحيـة الـذوق الجمالي، فما يزال البحث البلاغي يفتقر إلى الدراسة التحليلية للوقوف علـى أسـرار الفنون البلاغية التي تؤدّي داخل النصّ وظيفة تستحق البحث عنها.

من هنا تأتي أهمية هذا البحث، فهو يسعى إلى دراسة أحد هذه الفنون البلاغيـة (الطباق) لما له من حضور كثيف لافت في التوقيعات، وقد تبين أنّ لاستخدامه مهمّات محدّدةً تُلبي دواعي التجربة الشخصية، والتذوق الجمالي، والتـأثير النفـسي، ولـيس مجرد حلية لفظية أو تلاعب بالكلمات.

* قسم اللغة العربية - كلية الآداب والعلوم الإنسانية- جامعة دمشق

التوقيعات•

التوقيعات لغةً: جمع توقيع، ويدلُّ الجذر اللغوي لمادة (وقع) فيما يدلّ عليه على سقوط شيء على التحقيق أو التقريب، وعلى التأثير والإصابة[1]. وقيل هو «مأخوذ من توقيع الدبر ظهر البعير فكأن الموّقع في الكتاب يؤثر في الأمر الذي كتب الكتاب فيه ما يؤكده ويوجبه [2].

ولعل ابن فارس(ت395هـ) من أوائل من أشاروا إلى المعنى الاصطلاحي للتوقيع حين قال: «ومن التوقيع ما يُلحَق بالكتاب بعد الفراغ منه»[3]. وحدّد القلقشندي (ت821هـ) هذا المعنى بقوله: هو «الكتابة على الرِّقَاع والقِصَص بما يعتمده الكاتب من أمر الولايات والمكاتبات في الأمور المتعلقة بالمملكة والتحدّث في المظالم»[4]

والتوقيع لا يُكتَب «إلاّ على الرسالة نفسها أو الرُّقعة أو القصّة المرفوعة إلى أولي الأمر هؤلاء، كما أنه لا يُلْتَزَم فيها ما يُلتَزم في الرسائل من منهج، أو ختم، أو طي وما أشبه ذلك من أمور مختلفة. وهذه كلها سمات تجعل من هذه التوقيعات نوعاً أدبياً خاصاً ومستقلاً، وإن كان في الأصل ثمرة من ثمار فن المراسلات أو أدب الترسل»[5].

والتوقيعات: فنّ أدبي من فنون النثر العربي، ارتبطت نشأتها وازدهارها بتطور الكتابة، فهي ليست فناً يؤدىٰ مُشافهة كالخطابة والمحاورة والمفاخرة... وغيرها من

• غرض البحث دراسة التوقيعات حتى العصر العباسي.

(1) انظر لسان العرب مادة (وقع).

(2) تاج العروس مادة (وقع).

(3) معجم مقاييس اللغة مادة (وقع) 6- 134.

(4)انظر صبح الأعشى في صناعة الإنشا 145/1.

(5) تاريخ الترسل النثري عند العرب في صدر الإسلام ص 402- 403.

الفنون الأدبية الشفهية؛ بل هي «لون من الألوان الأدبية الرفيعة، اعتمدت على الفطرة السليمة، والموهبة الفذّة والبديهة والارتجال في التعبير، والثقافة الواسعة، والتجربة العميقة، والخبرة الطويلة، واحتاجت إلى الجمع بين الموهبة والثقافة، وإجالة الفكر، وإعمال العقل، وحضور الذهن، وصفاء القلب، والشدّة في التعبير بلا لين، والترفّق من غير ضعف»[1].

والتوقيع «كان يتولاه في ابتداء الأمر الخلفاء فكان الخليفة هو الذي يوقّع في الأمور السلطانية وفصل المظالم وغيرهما»[2]. وقد يقوم كاتب مختص «يجلس بين يدي السلطان»[3] بذلك.

والتوقيع قد يكون اقتباساً من القرآن الكريم، فيكون التوقيع آية قرآنية تُناسب الموضوع الذي تضمّنه الطلب، أو حديثاً نبوياً شريفاً، أو مثلاً، أو حكمة، أو قولاً بليغاً وليد الساعة، وكل ذلك من إنشاء الموقِّع، وهذا الموقّع قد يكون خليفة أو أميراً، أو والياً أو قائداً، أو وزيراً، أو كاتباً بأسلوب موجز مؤثّر بليغ.

وقد اقتُصِرَ هنا على التوقيعات المبتكرة التي ألّفها الموقعون وصاغوها بأنفسهم، لنبين جماليات أسلوب (الطباق)، وحضوره الفني الفاعل في توقيعاتهم.

الطباق:

لم يكن من باب المصادفة أن يتنبه علماؤنا العرب القدماء إلى ما في التضاد من قيم جماليّة، فيجعلوا منه باباً رئيساً اسمه (الطباق)، هو في رأس المحسنات المعنوية واللفظية. فالطباق فنٌّ أسلوبي اشتهر في الأدب العربي، وشاع على ألسنة العامة والخاصة قديماً وحديثاً بتسمياته المتعددة، فقد سُمي

(1) النثر في العصر العباسي ص 237.
(2) صبح الأعشى في صناعة الإنشا 145/1.
(3) انظر مقدمة ابن خلدون 306/1.

المطابقة، والتكافؤ، والتضاد. وهو في اللغة: «الموافقة، يقال: طابقت بين الشيئين: جعلت أحدهما على حَذْوِ واحد وألزقتهما، والمطابقة: المشي في القيد، وهي أن يضع الفرسُ رِجله في موضع يده»[1].

و(الطباق) في اصطلاح البلاغيين: «الجمع بين المتضادين؛ أي معنيين متقابلين في الجملة»[2]. وهذان المعنيان «يتنافى وجودهما معاً في شيء واحد في وقت واحد»[3].

ويتداخل المعنى البلاغي للطباق والمعنى البلاغي للمقابلة؛ لأن الأخيرة ما هي إلاّ طباق متعدّد، وقد عرّفوها بأن «يؤتى بمعنيين متوافقين أو معان متوافقة، ثم يقابلهما على الترتيب»[4]. ثم «إذا شرطت هنا شرطاً شرطَتْ هناك ضدّه»[5].

واختلف العلماء في موقع (المقابلة) من (الطباق) فأدخلها جماعة[6] فيها، ودرسها بعضهم[7] بعد الطباق. وهناك من رفض إدخالها فيه[8].

وفرّق العلماء بين الطباق والمقابلة من أن المقابلة طباق متعدد، «فإذا جاوز الطباق ضدين كان مُقابلة»[1]. وعليه فالطباق والمقابلة من حيث الموضوع شيء واحد[2].

---

(1) لسان العرب: مادة (طبق).
(2) انظر هذا التعريف والتفصيل في أنواعه وأمثلته في الإيضاح ص348- 355.
(3) انظر: المفصّل في علوم البلاغة ص559.
(4) الإيضاح ص353.
(5) مفتاح العلوم ص533.
(6) انظر من هؤلاء: ابن الأثير، الجامع الكبير ص212، والخطيب القزويني، الإيضاح ص353.
(7) انظرمن هؤلاء: السكاكي، مفتاح العلوم ص533، وابن رشيق، العمدة 590/1.
(8) انظر خزانة الأدب 129/1 و 157.

وقد آثر البحث هنا الجمع بين هذه الأنواع المتقاربة من مقابلة أو طباق، أو إيهام التضاد، أو غير ذلك تحت عنوان عام هو (الطباق)، مستفيدين بذلك من حازم القرطاجني(ت684هـ) الذي قال فيما قاله: «قد تكلّم الناس في ضروب المطابقات، وبسطوا القول فيها، فلا معنى للإطالة، إذ قصدنا أن نتخطّى ظواهر هذه الصناعة وما فرّع الناس منه إلى ما وراء ذلك مما لم يُفرّع منه»[3].

واستناداً إلى ذلك فإن هدف البحث ليس تقديم إحصائية عن عدد أمثلة الطباق في التوقيعات أو أنواعها؛ بل سيتعدّى ذلك إلى الدراسة التطبيقية الواعية لنصوص التوقيعات، لما تُمثّله من ثراء تعبيري وفنّي لا نزال في حاجةٍ إلى إبرازه من خلال ما يكمنُ فيه من الاستخدامات البلاغية التي يُعدّ (الطباق) واحداً من أبرزها.

إنّ المتصفّح للتوقيعات يرى أنها لم تكن حلية تزينية، أو ترفاً فكرياً تعمّده الموقّعون، بل حقق حضورها قيماً نفسية وجمالية، من ذلك:

1- الطباق وجوهر القضايا:

ويُقصَد بذلك تلك الثنائيات الضدية التي يقوم عليها الكون بأسره، الواقعة أمام الأنظار في مشاهد الكون، وصفات الخلائق على اختلاف ألوانها وأشكالها، والمبرزة دائماً قطبين تتراوح بينهما الأشياء، أو تنشأ عنهما قضايا الوجود، أو تقوم بينهما تلك الفجوة التي تحدِّد حركة الأمور ومسارها ضمن هذين القطبين، وهو في الوقت نفسه يُثبت قيام تلك الفجوة التي تحدد «مسافة التوتر في لغة التضاد، والتي تجمع أشكال

(1) العمدة 590/1، وللاستزادة انظر تفصيل ذلك في فنون بلاغية ص227، ووشي الربيع بألوان البديع في ضوء الأساليب العربية ص30.

(2) البلاغة فنونها وأفنانها (علم البيان والبديع) ص278.

(3) منهاج البلغاء ص51، وانظر تعليل ذلك أيضاً في البديع في شعر شوقي ص251.

المغايرة والتمايز التقابليين بين الأشياء في اللغة وفي الوجود»[1] وهذا يؤكّد أنّ «كلّ نقطة هي حِزمة من المعاني... تشعّ باتجاهات متنوعة متعاكسة»[2].

ويأتي بعد ذلك الأسلوب الذي يتمحور في شكل تراكيب تختلف باختلاف الحالات النفسية وحجم الانفعالات المصاحبة للأديب حال إفصاحه عن رؤاه وفلسفته. وعليه فإن وظيفة (الطباق) الأساسية في التوقيعات هي وظيفة معنوية تقوم على تصوير طبيعة الحياة تصويراً دقيقاً، وإبراز حياة الدولة والمجتمع في مختلف الميادين، وفي مختلف الموضوعات، فكل توقيع من هذه التوقيعات يصوّر جانباً من جوانب تلك الحياة، يمكن استثماره في معرفة كليّات ذلك العصر وجزئياته على حدّ سواء.

وهذا يؤكّد من ناحية أخرى أن «التضاد نوع من التوازن الضروري لاستمرار الكون والكائنات، المادي منها والمعنوي»[3].

فمن القضايا الجوهرية التي طرحتها التوقيعات، وسعت إلى إيجاد تصوّر لها:

أ- قضية (الحياة والموت) وأمثلة ذلك:

- «كتب خالد بن الوليد إلى أبي بكر الصدّيق - رضي الله عنه- من دومة الجندل يستأمره في أمر العدوّ. فوقّع إليه: ادنُ من الموت تُوهَبْ لك الحياة»[4].

فطابق هنا بين (الموت) و(الحياة)، وهذه الثنائية هي أصل الكون؛ لأن الحياة قائمة في الأصل على صراع بينهما أزليّ لا ينقطع ولا ينتهي، وهي قضية حياتية وجودية يتداولُها الناس في لحظات تأمّل فيما حاق بهم أو بغيرهم. وعليه فإنّ «موت الكائن وحياته جزء من جدلية الكون كله، ومن المتعذر فصل الحياة عن الموت من

(1) انظر في الشعرية ص45.
(2) نفسه ص49.
(3) البديع في شعر شوقي ص251.
(4) خاص الخاص ص86.

مختلف الجوانب»[1]. فأصل الوجود قائم على صراع بين غريزتي (الحياة) و(الموت)، الأولى تعني السعي وراء الملذات والأهواء، والثانية تعني الانقطاع عن مباهجها، وعليه فإن التوازن بينهما يُجنّب الإنسان عواقبَ الصراع.

ويُفهم من هذا أمران: الأول أن سيدنا أبا بكر أراد بتوقيعه هذا أن يُنمّي في نفوس أصحابه حبّ الشهادة في سبيل الله، وفي سبيل نصرة الإسلام والمسلمين،مُبيّناً أنه في (شهادتهم) حياة عظيمة لهم، فالموت بذلك بداية حياة، حياة لا موت بعدها.

والأمر الآخر أنه قد يكون في التوقيع توجيه عسكري مفاده أنك بمقدار ما تطلب العدو وتلاحقه تُخرجه من مسرح العمليات، وبإخراجه تبقى أنت في ساحة الحياة.

ب- قضية (العدل والظلم)

وقضية أخرى نلمسها حاضرة بشدّة في توقيعات الحكّام هي: (العدل والظلم)، العدل الذي هو أساسُ المُلك، والذي يرقى بالدولة والمجتمع إلى مراتب سامية فيها البناء، وفيها الازدهار، وفيها الراحة والاطمئنان والشعور بالأمان، وغياب هذا القطب، وحضور نقيضه (الظلم) يقودُ الدولة والمجتمع إلى الدمار، وعليه فإن غلبة القطب الأول يُقوّم المجتمع ويسمو به، وغلبة الآخر يهوي به إلى الدّمار والفناء.

فقد «كتب بعضُ العمّال إلى عمر بن عبد العزيز يستأذنه في مَرَمَّةِ مدينته، فوقّع في أسفل كتابه: ابْنِها بالعدل، ونقِّ طُرقها من الظلم»[2]

فالطباق بين (العدل) و(الظلم) بيّن عواقب الصراع القائم بينهما، وأثبت إثباتاً لاشكّ فيه أنّ على الحاكم أن يهتمّ بجوهر الأمور، وأن يوليها اهتمامه ورعايته، لأنها الأَولى، وهي الأقدر على الثبات والحضور من تشييد العمران والتطاول فيه.

(1) الموت في الديانات الشرقية ص 14.

(2) العقد الفريد 208/4، وجمهرة رسائل العرب 580/2.

وقد عزَّز هذا المعنى الاستعانة بأسلوب الأمر (ابن) و(نــقّ) ليؤكّــد حــضور شخصية الحاكم العادل الناصح في أوضح تجلياتها.

وهذا يؤكّد أنّه لو تتبعنا كلّ استعمال لطباق (العدل والظلم) في التوقيعات لتبــين لنا كيف يقوم بوظيفته في الأداء، وفي دراسة القضايا التي تهم الراعي والرعيّة؛ لأنّــه اعتمد فيما اعتمد عليه على الوقائع التي كانت حيّة آنذاك في أذهان الناس، وفي تلــك الآراء التي اعتنقها الحُكّام وساروا على هديها، من هنا يأتي توقيع المأمون «في قضية متظلّم من أبي عيّاد: يا ثابت، ليس بين الحقّ والباطل قرابة»[1]. لينفــي كــلّ صــلة بينهما، فهما خطّان متوازيان لا يلتقيان ولا ينبغي لهما كذلك أن يلتقيا.

- وهكذا تتكرر الدعوة إلى إحقّاق الحقّ ونبذ الظلم في توقيع عمر بن عبد العزيز في «رُقعة رجل تظلّم من ابنه: إن لم أنصفك منه فأنا ظلمتُك»[2]. وتوقيــع طــاهر بــن الحسين في كتاب رجل تظلّم من أصحاب نصر بن شَــبَث: طلبــت الحــقّ فــي دار الباطل»[3].

وإذا ما انتقلنا إلى المقابلة نرى أن مثولها في أســاليب المــوقّعين يــوحي بتلــك القضية المصيرية وتُشير في الوقت نفسه إلى ذاك المستوى الفكري المتداول في ثقافة الراعي الحاكم، ويُمكن أن نتبين دلالتها في إبراز قضايا المجتمع وهمومه من خــلال استعراض معانيها في التوقيعات الآتية:

- وقّع المأمون في قصة متظلّم من عمرو بن مسعدة: يا عمرو! عمّر نِعمتك بالعــدل فإن الجور يهدمها»[4]. وهنا يظهر تزاحم الأضداد فــي هــذا التوقيــع وتــصارعها،

(1) العقد الفريد 215/4.
(2) نفسه 209/4، وجمهرة رسائل العرب 582/2.
(3) العقد الفريد 221/4، وجمهرة رسائل العرب 452/4.
(4) العقد الفريد 215/4، وجمهرة رسائل العرب 438/4.

(فالعدل) يصارع (الجور)، والفعل (عمّر) يصارع الفعل (يهدّم)في كلمة (يهدّمها) وبذلك يظهر الفارق بين حال النعمة التي تُؤسس على العدل، وحالها عندما تصبح في يد سلطان جائر، فإن الأُولى تقود إلى الخير، والأخرى تؤدي إلى الشر.

- وتظهر هذه القضية أيضاً في توقيع جعفر بن يحيى البرمكي: «الخَراج عمودُ المُلْك، وما استُعزر بِمثل العدل، وما استُنزر بِمثل الجَور»[1]. لتؤكد حضور تلك القضية التي طرحناها، وهي الدعوة إلى إحقاق الحق، ونبذ الباطل.

ج- قضية (الشدّة والرخاء):

وثمة قضية أخرى طرحتها التوقيعات، وهي (الشّدة والرّخاء)، الشّدة التي يلزمها قدرة على الصبر وحسن التعامل، وإدارة شؤون الدولة، والرّخاء الذي يكون نتيجة حتمية تُؤسس على ما سلف، وعليه يأتي الطباق ليكون مُسعفاً روحيّاً يُعزِّز ما لدى الفرد من طاقات كامنة وقناعات ثابتة، عدا عن كونه مُسعفاً فنياً بنى عليه الموقّع قوله.

فقد وقّع أبو العباس السَّفّاح «في كتاب جماعة من بطانته يَشْكون احتباسَ أرزاقهم: من صَبَر في الشّدةِ، شُورك في النعمة»[2] فنرى (الشّدة) تُصارع (النعمة)، ونرى الصبر على المعاناة والتحلي بالعزيمة والجلد يصطدم مع الرخاء ليتولّد عنه قيام شخصية صلبة متينة نشأت من ذاك الصراع بين ذينك القطبين المتناحرين.

د- قضية (الصدق والكذب):

وقضية جوهرية أُخرى كان لها حضورها في توقيعات الموقعين، هي قضية (الصدق والكذب) فهذان مقوّمان جوهريان لشخصية المرء، ومسيرته في الحياة،

(1) جمهرة رسائل العرب 447/4.

(2) العقد الفريد 211/4، وجمهرة رسائل العرب 426/4.

وحضوره الفاعل أو حضوره الطاغي. وهنا لا يقف الموقّع موقفَ المتأمل في الأحوال التي تمرُّ والمخاطر التي تعصف بالمجتمع فيأتي توقيع طاهر بن الحسين في رُقعة مُتَنصِّح: سننظُرُ أصدقتَ أم كُنتَ من الكاذبين»[1] ليُبين عاقبة اصطدام صفة (الصدق) أو نقيضها (الكذب) في شخصية المتنصح وغلبة إحداهما على الأخرى، وهنا تأتي الجملة الخبرية لتُعزّز حضور شخصية الحاكم وحسن إدارته لشؤون الدولة والرعية، فقال: (سننظر) هذا الانتظار الذي يحمل معاني الثواب في حال الصدق، ومعاني العقاب في حال الكذب.

هـ: قضية (الحاكم والوالي):

ويأتي التوقيع أحياناً ليُبين المنهج الذي اختاره الحاكمُ لنفسه، أو سمات بعض الولاة، فيكون الغرض إثبات حقيقة يُقصد من خلالها لفت نظر المتلقي أو الموقّع إليه إلى أمرٍ ما ليتم تداركه.

- ففي توقيع المهدي إلى «صاحب خراسان في أمرٍ جاءه: أنا ساهر وأنت نائم»[2] وتوقيع مروان بن محمد عندما «كتب إلى نَصْر بن سَيّار في أمر أبي مُسلّم: الأمر مضطرب وأنت نائم وأنا ساهر»[3] مقارنة بين حالتين متناقضتين، حققتهما الثنائيتان الضديتان:

أنا - أنت

ساهر - نائم

لتتشكّل هيئتان متصارعتان؛ (أنا ساهر) تصارع (أنت نائم)، وهذا الصراع لم يكتفِ بجعل النصّ سامياً فنيّاً، بل جعلته نفعياً أكثر من كونه فنياً، فهي تصوّر تصويراً

(1) العقد الفريد: 222/4، وجمهرة رسائل العرب 452/4.

(2) العقد الفريد 212/4، وجمهرة رسائل العرب 432/4.

(3) العقد الفريد210/4، وجمهرة رسائل العرب 584/2.

مبطّناً الصراع القائم في نفوس بعض الحكّام أو الولاة، وتغلّب الجانب غير المسؤول في شخصيتهم وميلهم إلى الراحة والدعة، وإقبالهم على الحياة وإغفالهم لواجبهم تجاه قضايا الرعية. وعليه فقد أرست المقابلة هنا قواعد ثابتة، وتوجيهات محدّدة، وأصولاً ينبغي الأخذ بها، وزادت المعنى قوةً، وأضفت على السياق حُسْناً وبهاءً.

و- والقضية الأخيرة التي سيُشار إليها هي قضية (الحاكم) فقد جاء توقيع معاوية: «نحن الزمانُ: من رفعناه ارتفع، ومن وضعناه اتّضع»[1] لتصور قدرة الحاكم في أوسع معانيها، فجمع بين الأضداد:

رفعناه - وضعناه،

وارتفع - واتّضع

لتتشكل مقابلة: من (رفعناه ارتفع)- ومن (وضعناه اتضع)، فحكم على نفسه من خلال وجود هذه الثنائيات في شخصه بأنّه قادر على الأمرين معاً؛ الرّفعة والضّعة، الإعزاز والإذلال، الحلاوة والمرارة، الخير والشّر. وذِكرُ النقيض هنا لا يُستغنى عنه في هذا المقام لإظهار ما يتمتع به الحاكم من كمال القدرة، وسعة السلطان، إذ قد يُفهم أنّه يقدر على الإعزاز ويعجز عن الإذلال، وقد يستطيع أن يرفع لكنه لا يقدر على الإذلال، ومع ذلك يمكن أن يُوصف بالقدرة لكن قدرته غير تامة، وسلطانه غير شامل. فإذا كان الوصف للحاكم أدركنا ضرورة اجتماع الضدين في شخصه لنتبين بدقة حضور شخصية الحاكم في الدولة والمجتمع.

ويبقى البحث في إطار (الحاكم) وما ينبغي أن يكون عليه، ليأتي توقيع جعفر بن يحيى البرمكي إلى عامل له أكثر الناسُ شكيَّه: يا هذا، قد كَثُرَ شاكُوك، وقلَّ شاكروكَ، فإمّا اعتدلتَ، وإمَّا اعتزلْتَ»[2]. مبيناً الأسس التي ينبغي أن يكون عليها، وهنا يُؤثر

(1) جمهرة رسائل العرب 575/2.

(2) العقد الفريد 219/4، وجمهرة رسائل العرب 445/4.

الموقّع استخدام أسلوب الطباق المتعدد أو المقابلة للفت نظر الموقَّع إليه ليرتدع، أو ليثبت على الجانب الأمثل والأَولى، اعتماداً على نفي مزية أحد الركنين لتأكيدِ قيمة الركن الآخر.

وتأتي بعد ذلك قضايا لا يدَ للحاكم فيها، فهي شأنٌ كونيٌّ يتحكّم فيه ربّ قادر عادل له مسوغاته وأسبابه، فما على الإنسان إلاّ الاستسلام والاطمئنان بأنه حال الدنيا، وسِمَة الكون، وسنّة الوجود، فيأتي توقيع يوسف بن القاسم: «من جَور الدنيا أنّها لا تُعْطي أحداً ما يستحق، إما أن تَزيده وإمّا أن تَنْقُصَه»[1]، ليؤكّد هذا الواقع ويحسمه، وقد ساعده في ذلك أسلوب الطباق الذي قام بدوره في الأداء؛ لأنه اعتمد فيما اعتمد عليه على الوقائع التي كانت وما زالت حيّة في أذهان الناس.

وعندما يُطلق الإنسان أحكاماً لا بد أن تكون تلك الأحكام منبثقة من تجربته في الحياة، فكيف إذا كان هذا الإنسانُ حاكماً وقائداً ومسؤولاً.

وعليه فقد أطلق الموقّع حكماً على الدنيا بأنها جائرة ظالمة لا تُعطي الإنسان قدر استحقاقه، فجاء هنا بإيهام التضاد بين (الجور) و(تعطي) ثم عاد وفسَّر هذا الحكم مستخدماً الطباق بين (تزيده) و(تنقصه).

وهنا تظهر لنا قضية أخرى تقوم عليها معادلة الحياة التي تتأرجح بين الأخذ والعطاء، بين القبول والرفض، وهي قضية جوهرية أصبح لحضورها معنى ثابت، خاصة بعد أن قُرنت ضمن مفهوم الطباق، فكلّ من هاتين المفردتين لها إرثها الديني والاجتماعي والنفسي الذي يُحدث هذا الاصطدام، فيتولد عنه معنى جديد هو القبول والاستسلام.

(1) جمهرة رسائل العرب 456/4.

2- تحقيق التناسب في العبارة:

تنبّه نُقّادنا القدماء إلى التوازن والتناسب الناتجين عن استخدام الطباق، إذ يُتوخى من استخدامه تحقيق التناسب في العبارة، والتناسب في أجزاء الكلام أو الكلمة.

فالمقابلة البليغة ما جاءت صحيحة مطبوعة، وصِحّة المقابلة تتحقق من ترتيب الكلام على ما ينبغي، فإذا أتى المتكلم في صدر كلامه بأشياء قابلها في عجزه بما يلائمها من أضدادها أو أغيارها من المخالف والموافق على الترتيب»[1]، وهذا يعني أنه «متى أخلّ بالترتيب كان الكلام فاسد المقابلة»[2].

وهذا ما أكّده حازم القرطاجني (ت684هـ) بقوله: «وإنما تكون المقابلة في الكلام بالتوفيق بين المعاني التي يُطابق بعضها بعضاً، والجمع بين المعنيين اللذين تكون بينهما نسبة تقتضي لأحدهما أن يذكر مع الآخر، من جهة ما بينهما من تباين أو تقارب، على صفة من الوضع تلائم بها عبارةُ أحد المعنيين عبارةَ الآخر كما لاءم كلا المعنيين في ذلك صاحبه»[3].

ويبدو أن التناسب في الأصل مرتبط بمعنى المقابلة[4]. قال ابن رشيق: «المقابلة: مقابلة اللفظ بما يستحقه في الحكم... وأصلها ترتيب الكلام على ما يجب؛ فيُعطى أول الكلام ما يليق به أولاً، وآخره ما يليق به آخِراً، ويأتي في الموافق بما يوافقه، وفي المخالف بما يخالفه»[5].

(1) انظر نقد الشعر/133، وبديع القرآن /73.
(2) بديع القرآن /73.
(3) منهاج البلغاء ص 52.
(4) العمدة 590/1.
(5)انظر العمدة 590/1، وتوضيح البديع في البلاغة ص19.

وهذا يثبت أن الطباق في التوقيعات لم يكن زينة معنوية أو ترفاً تركيبياً داخل الجملة بل كان مسلكاً بلاغياً في تحقيق التناسب في العبارة في ضوء بُنية العبارة أو النصّ الوارد فيها. وبذلك يمضي السياق على نسق متناسب متجانس؛ فالمعاني المتضادة يُعزِّز بعضُها دلالة بعض ويُنّميها ويشدّ أزرها، وهذا هو التناسب الذي لم يجتلبه تطلّب الطباق، بل جاء على السجية عفو الخاطر يميل إليه الطبع وتتشوّق إليه النفس.

وهذا يؤكّد أن الطباق استُعمل في أيدي الموقّعين ليكون أداةً لتعزيز المعنى، وتعزيز تلاحم العبارة وتناسبها. وفي هذا الإطار تتفوق المقابلة لاعتمادها التناظر التام أو شبه التام بين أجزاء الجملة, ومن أمثلته:

- وقّع هارون الرشيد «في قصّة البرامكة: أنبتتهم الطّاعة وحصدتهم المعصية»[1]. مقسّماً التوقيع بذلك إلى فِقرتين متساويتين، متشاكلتي المقاطع، مُتناسقتي الحضور؛ فأتى بإزاء كلّ كلمة بما يُضادها على الحقيقة، حيث جاء بإزاء (أنبتته) (حصدته)، وبإزاء (الطاعة) (المعصية)، وبذلك تشكّلت هيئتان متنافرتان عملتا عملين معاً؛ الأول: تقديم المعنى الخاص بظلاله وإيحاءاته ثم تقديم معنى آخر بالتحامه مع الألفاظ الأخرى التي تتكون منها الهيئة الأخرى، والآخر تحقيق نوع من التناغم والتناسب في العبارتين، هذا التناسب الذي رُكّب تركيباً عفوياً طبيعياً لا جفاء فيه ولا تكلّف ولا قسر، فأصابنا بهزة من الأريحية التي ما كانت لتحدث لولا ذلك التناسب والتناغم والانسجام بين الهيئتين المتضادتين.

(1) العقد الفريد 213/4، وجمهرة رسائل العرب 434/4.

- وقّع «عبد الملك بن مروان في كتاب كتبه إليه الحجاج يُخبره بسوءِ طاعة أهل العراق وما يُقاسي منهم، ويستأذنه في قتل أشرافهم؛ فوقّع له: إنَّ من يُمن السائس أن يأتلف به المختلفون، ومن شؤمه أن يختلف به المؤتلفون»[1].

فقابل بين ثلاث مفردات معتمداً في ذلك على تقسيم البنية الهيكلية العامة للتوقيع على مجموعة من البُنى الصغيرة التي تستقل في عوالمها الداخلية الخاصة؛ فطابق بين:

يمن - شؤم

يأتلف - يختلف

المختلفون - المؤتلفون

مكوناً هيئتين متباينتين لكنهما متناسبتان؛ فالألفاظ متنافرة والجمل متوازنة، والتفاعل بينهما أحدث توازناً لا يشكّ أحد بانتمائه إلى الحسّ الجمالي.

- وقّع يزيد بن معاوية «في كتاب مُسلم بن زياد عامله على خُراسان وقد استبطأه في الخراج: قليلُ العِتاب يُحكم مَرائر الأسباب، وكثيرُه يَقطع أواخي الانتساب»[2].

فقابل بين:

قليل - كثير

يُحكم - يقطع

مرائر - أواخي

هذا على ما بين الكلمات من طباق حقيقي أو خفي. فهذا التتابع في الكلمات المتنافرة، على ما فيه من توازن كميّ تكوّنت منه صورة روحية استجاب العقل لداعيها، وانسجم مع التنغيم الخفي الذي أحدثته؛ فهي متّسقة الألفاظ، متلاحمة الأجزاء

(1) العقد الفريد 207/4، وجمهرة رسائل العرب 577/4

(2) العقد الفريد 207/4، وجمهرة رسائل العرب 576/2.

حتى ليخيل أنّها من سلاستها واطّرادها وانعطاف حواشيها بعضها على بعض أنها دفقة من سيل منهمر.

- كتب الحجّاج إلى الوليد بن عبد الملك لـمَّا بلغه أنه خرق فيما خَلّف له عبد الملك، يُنكر ذلك عليه ويُعرِّفه أنه على غير صواب، فوقَّع في كتابه: لأجمعّن المال جَمْعَ من يعيش أبداً، ولأُفرقَنّه تفريق من يموت غداً[1].

فقابل بين أربع مفردات:

لأجمعنّ	-	لأفرقنّ
جمع	-	تفريق
يعيش	-	يموت
غداً	-	أبداً

فهذا التزاحم في معاني الأضداد، وانتظام التناسب الحرفي، حقّق انسجاماً في الألفاظ، وتآلفاً في التركيب فبدتا كقطبي رَحى ثابتة لاهي إلى اليمين تتجه، ولا إلى اليسار تنجذب، فولّد لدينا إحساساً بالمتعة، وأصابنا بهزّة من الأريحية.

3 - تنشيط الفعالية الإدراكية:

وهذه جمالية أخرى من جماليات الطباق، وهي قدرته على تنشيط الفعالية الإدراكية، بوصفه منبّهاً أسلوبياً يهدف من خلاله إثارة المتلقي، وجذب انتباهه، وتحريك همّته لمشاركة المتكلم رحلته في النصّ أو العبارة. وهذا نابع مما هو مركوز في الطباع من مقارنة بين الأضداد، وموازنة بين المتقابلات، ومن طبيعة الحياة التي تقوم أساساً على فكرة الثنائيات الضدية، نظراً لكثرتها أمام الأنظار في مشاهد الكون، ومظاهر الحياة، وصفات الخلائق، وهي من طبيعة الممكن اللغوي الذي ينطلق من أنّ

(1) العقد الفريد 208/4، وجمهرة رسائل العرب 578/2.

الإحاطة بالمتنافرات في المعنى متقاربات على الورق أو في الكلام تُثير في المتلقي مشاعر من الإدهاش والاستغراب والتساؤل، وهذه تصحبُها مظاهر من التوقع والترقب.

فالمتلقي حين يُدرك التقابل بين المعنى الأول في الطباق، أو أكثر من معنى في المقابلة يُعدّ نفسه لتلقي تقابل آخر، فإذا ما تحقق له ذلك أحسّ بشيء من المتعة، هي المتعة التي نأنسها عندما تتحقق توقعاتنا، ويُصيب حدسنا.

وهذا يُعدّ من قِيم الطباق وجمالياته؛ إذ إن «القدرة على لمِّ شَتات المتنافرات في موضع واحد يُحدث في الذهن ضرباً من الانتقال السريع بين الضدّ وضدّه، والشيء ومقابله. وحين يتحقق للإدراك هذه الإحاطة بالمتباعدات في الواقع، على هذا النحو السريع، وعلى هذه الصورة التي يتجاورُ فيها الماءُ والنارُ، والأبيضُ والأسود، يأنسُ شيئاً من البهجة والرّضا. ويبدو أنّ المتباعدات في المعنى أقدر من غيرها على تنشيط الفعاليّة الإدراكية. كما يتأتى شيءٌ من هذه الجمالية من التعجب والإدهاش اللذين يحدثان للذهن عند إدراك الأفعال المتضادة المنسوبة إلى فاعل واحد»[1].

وهذا يؤكّد تلك القاعدة الثابتة بلاغياً، وهي أن الطباق «من الأمور الفطرية التي لها علاقة وثيقة ببلاغة الكلام، إذ الضد أقرب خطوراً بالبال عند ذكر ضده، فالطباق ينقل غرض المتحدث ويُبرزه في صورة قوية مؤثرة»[2], ومن أمثلته:

- «رُفع إلى الصاحب بن عَبّاد أنّ رجلاً غريب الوجه يدخل داره ويسترق السمع؛ فوقّع: دارُنا خان يدخُلها من وفى ومن خان»[3].

فطابق بين: (وفى) و(خان)، فذهب بذلك بطرفي الطباق إلى أقصى طرفي التناقض.

(1) المفصّل في علوم البلاغة ص561.
(2) وشي الربيع بألوان البديع في ضوء الأساليب العربية ص26.
(3) خاص الخاص ص 92- 93، ويتيمة الدهر 234/3.

فالمتلقي حين تقرع مسامعه العبارة الأولى (يدخلها من وفى) يُعدّ نفسه مباشرة لسماع النقيض لكلمة (وفى)، وبذلك تتهيأ مداركه، وتُشحذ طاقاته لاستجلاب ما يناقضها وعندما يصل إلى الكلمة ويلتقطها، يستعد لما سَيُلقى على مسامعه بعدُ، فتأتي الكلمة المضادة التي تنثال من المتكلم لتوافق توقعاته أو تخطّئها.

كلّ هذا التساؤل والرغبة في التوقع تؤكّد أن المتلقي ليس مراقباً محايداً، يتقبّل كلَّ ما يُلقى إليه، ولا همّ له غير القبول أو الرفض، بل إن المتلقي هنا تثيره نوازع شتى من الرغبة في المشاركة والتوقع، وعليه فإنّ النجاح فيه يخلق لديه نوعاً من الإدهاش والفرح، ويولّد عنده مشاعر نفسية مختلطة من: الرضا والإعجاب والاطمئنان، مشاعر مَنْ أثاره شيء فحرّكه وهزّه ثم شاركه في الوصول إلى نهايته.

- «وقّع يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان إلى مروان: أراك تُقدّم رجلاً وتؤخّر أُخرى، فإذا أتاك كتابي هذا فاعتمد على أيِّهما شئت»[1].

فالمتلقي عندما يسمع عبارة (أراك تقدّم رِجلاً) يتوقّع أن العبارة التالية ستكون نقيضاً لها، فيبدأ بإشغال ذهنه لإيجاد العبارة المضادة المناسبة لذلك، فإذا ما تحقق توقعه أُصيب بالفرح و الإدهاش اللذين يحدثان لمن يعي الأفعال المتباينة المنسوبة إلى فاعل واحد.

4 - التحسين والتقبيح:

لم يكن الطباق في التوقيعات حلية بلاغية أو مشروعاً فنياً يُمكن الاستغناء عنه، بل هو - كما حاول البحث إثباته - فنّ حياتّي له أثره في رصد كثير من المظاهر السائدة في المجتمع، ومن ثم فهو نتيجة حتمية لتجارب حياتية عكست بكلّ وضوح وصرامة مسيرة المتكلم النفسية والفنية، وكانت شاهداً على ما مَرَّ به من مفارقات.

(1) انظر العقد الفريد 210/4، وجمهرة رسائل العرب 584/2.

وهذا يؤكّد ما ذكره حازم القرطاجني من أن «مثول الحَسن إزاء القبيح، أو القبيح إزاء الحَسن مما يزيد غبطة بالواحد، وتخلّيا عن الآخر لِتُبيّن حال الضدّ بالمثول إزاء ضدّه، فلذلك كان مَوْقع المعاني المتقابلات من النفس عجيباً»[1]

ولعل منشأ هذا العجب يعود إلى أن قانون النزاع بين ضدين «ينشأ عنه ما يسمونه بالطاقة الذاتية الحيّة، ومن ظواهرها الأولى ظاهرة الجمال. وعلى ضوء هذه الحقيقة العلمية نجد أنه لم يكن من الصدفة إطلاقاً أن يُحسّ الشاعر العربي القديم ويعقل معاً أن الجمال ينشأ عن نزاع خفي بين ضدين، فيقول:

فالوجه مثلُ الصبح مبيض والشعر مثل الليل مسوَدّ

ضدان لما استجمعا حَسُنا والضد يُظهر حُسْنَهُ الضِدُّ

فالشاعر قد أحسّ هنا، ولا ريب، هذا النزاع وحاول تفسير إحساسه به في آن واحد. ولقد أفلح في التفسير حقاً»[2].

- وقّع المهدي «إلى شاعر، أظنه مروان بن أبي حفصة: أسرفتَ في مديحك، فقصّرنا في حِبائك»[3].

فقابل بين هيئتين مستقلتين تماماً؛ الأولى: مكروهة مرفوضة، وهي (إسراف المخاطب في المديح ومبالغته فيه)، والأخرى وهي (التقصير في العطاء) حسنة مقبولة لأنها جاءت نتيجة حتمية لمن ينفر من الزيف والتزلف، ويرفض الإفراط والتملّق.

فالتقابل هنا منح النصّ طاقة تأديبية مؤثّرة، وذلك من خلال تقبيح القبيح ورفضه وإظهار عواقبه للتنفير منه.

(1) منهاج البلغاء ص45.

(2) الشعر والفن والجمال ص135- 136. والأفصح استخدام كلمة (المصادفة) عوضاً عن (الصدفة).

(3) العقد الفريد 4/212-213، وجمهرة رسائل العرب 4/432.

- ومن أمثلته أيضاً: «وقّع هشام بن عبد الملك في قصة متظلّم: أتاك الغوثُ إن كنت صادقاً، وحلَّ بك النَّكال إن كنت كاذباً، فتقدّم أو تأخَّر»[1]

فالتضاد بين الكلمات:

الغوث - النكال
صادقاً - كاذباً

شكّل في العبارة الأولى هيئةً مستقلة تماماً هي هيئة (الإكرام والنجدة في حال الصدق)، ثم قابلها بهيئة أخرى مستقلة في العبارة الثانية هي هيئة (الإمسَاك والعِقاب في حال الكذب)، وكأنَّ الموقّع يرغب إلى المخاطب أو يوجّهه لاتخاذ المسار الأمثل والأَولى لما فيه من خير له، ويُنفّره من صفة هي في الأصل مكروهة لديه (الكذب) ويردعه عنها. ثم يظهر لنا أن الموقِّع لم يكن مراقباً محايداً؛ بل أراد أن يؤكّد موقفه من هذه الثنائيات المتنافرة المتلاحقة، لتأتي الجملة الإنشائية: (فتقدّم أو تأخّر) لتُخيّره في انتقاء إحدى الضفتين؛ ضفّة الخير، أو ضفّة الشر، وتهدّده في الوقت نفسه.

وهنا يتأكّد لنا أن «القول النظري بأن نشوء الجمال ظاهرة طبيعية تحدث بفضل نزاع الضدين، يجد لنفسه أساساً في تاريخ النشاط الفني، والحدس الإنساني الجمالي، كما يجد لنفسه أساساً راهناً ثابتاً في صميم العلم»[2].

- وقّع زياد «في قصة قوم رفعوا على عامل رفيعةً: مَنْ أمالَهُ الباطلُ قَوَّمه الحقُّ»[3].

فقابل بين:

أماله - قوّمه
الباطل - الحقّ

(1) العقد الفريد 209/4، وجمهرة رسائل العرب 582/2.
(2) الشعر والفن والجمال ص136.
(3) العقد الفريد 217/4، وجمهرة رسائل العرب 586/2- 587.

فاتّضحت خصائص كل منهما، وتحدّدت المعاني المرادة في الذهن تحديداً قوياً، فالمقابلة هنا أطلعتنا على مشهد من مشاهد ما يقع فيه بعض القائمين على أحوال الرعيّة نرى فيه تناقض النتائج واختلافها تبعاً لتناقض أصولها؛ فالباطل يُشوّه صاحبه ويصيبه بالانحراف والخراب، والحقّ يُحسّن صاحبه ويصيبه بالسوية والبناء، ومواجهة محاسن كلّ فريق ومساوئه بالآخر في العبارة تجعل الفرق بينهما ماثلاً أمام العيون، مما يبعث على المسارعة إلى اتباع طريق الحقّ، والابتعاد عن طريق الباطل.

5- الطباق والإيقاع:

ليس المقصود بالإيقاع هنا هو التناغم القائم على القافية، أو الوزن العروضي، أو ما يُسمى بالمستوى الإيقاعي السطحي الذي يظهر في الأصوات، أو في الجمل التي يكون عمادُها التحسين اللفظي؛ كالجناس، والسجع، والموازنة، والمماثلة، وغير ذلك من الأساليب التي تعتمد على التطريب الحسيّ المبني أساساً على صناعة الإيقاع.

بل المقصود هنا موسيقى الفكر أو الإيقاع النفسي الممتد من المعاني المتغايرة، أو المنطلق منها، والذي أُسس في الأصل على المفارقة لا على المشاكلة لأنه «ينشأ غالباً من تفاعل عنصرين متمايزين»[1]. أو مجموعة من العناصر المتمايزة. فالحياة قائمة على قطبين تتراوح بينهما الأشياء، وعندما يستخدم المتكلم أسلوب الطباق يصطدم القطبان، فيتولّد الإيقاع الذي تدركه الروح أكثر من الأُذن التي تدرك الإمكانات الصوتية، أو العين التي تدرك الإمكانات الصورية، إنه يخلق حالة جديدة يطرب لها المتلقي؛ لأنه يُعرض عن الموسيقى والإيقاع إلى إيقاع آخر يتمثل بالطباق والمقابلة، فهو بذلك لم يتأسس على المشاكلة، وإنما على المفارقة والمغايرة.

(1) في الشعرية ص52.

والمتتبع لأسلوب الطباق في التوقيعات يلحظ أنه لم يكن استدعاءً لغوياً سهلاً لأي لفظة، بل سيلمس أنهم وظّفوه لصالح الصورة الفنية التي رسموها، ولصالح ذاك الإيقاع الخفي الذي أحدثه الطباق من خلال مجموعة من الثنائيات. ومن أمثلته:

- وقّع جعفر بن يحيى البرمكي «في قصة مستمنح كان قد وصله مراراً: دعِ الضَّرْعَ يدرُّ لغيركَ كما درَّ لك»[1].

فقد أورد الموقّع في العبارة الأولى حالة (الآخر) بقوله: (لغيرك)، وما تتسم به هذه الشخصية من غياب لحقوقها وحضورها، ثم أورد في العبارة الأخرى حالة (الأنا) بقوله: (لك) وما تتسم به هنا من حب الذات والرغبة في التملّك ورفض الآخر، وحين زاوج الموقّع بين هاتين الشخصيتين المتباعدتين واقعاً، والمتقاربتين فنياً، نتج لدينا إيقاع جديد، هذا الإيقاع لا يُمكن القبض عليه باستعمال الوسائل التقليدية في كشف النُظم الإيقاعية المألوفة والمعروفة القائمة على الغنائية والتصويت؛ بل نشأ – كما يقول أحد الباحثين- «من توليد تشكيلات إيقاعية غير منظورة»[2]. ودليل ذلك هو انعدام ذاك الإيقاع لوقمنا بعزل العبارة الثانية أو إقصائها؛ وعليه فإننا نطرب للقسم الثاني، أو العبارة الثانية؛ بل أحياناً نستخرجه وحدنا، لأنّه تكرار من نوع جديد ، تكرار يزيد الإيقاع قوة على قوة.

- وقّع مروان بن محمد في كتابه إلى نصر بن سيّار في أمر مُسْلم: تحول الظاهر يدلّ على ضعف الباطن، والله المستعان»[3].

لقد فهمنا أنّ الحياة قائمة على طرفي نقيض، ولكل منهما نظامه الذي يسير عليه، وبينهما صراع أزلي؛ فـ(الظاهر) صفة، و(الباطن) صفة، ولكل واحد من هذين

(1) العقد الفريد 219/2، جمهرة رسائل العرب 446/4.
(2) القصيدة العربية الحديثة بين البيئة الدلالية والبنية الإيقاعية/59.
(3) العقد الفريد 210/4، وجمهرة رسائل العرب 584/2.

الركنين فَلكه الذي يدور فيه؛ أي إيقاعه الثابت الخاص به، وهذا الإيقاع يُترجم ما لاتستطيع الكلمات أن تقوله. وعندما استخدم المتكلم أسلوب الطباق، وزاوج بين هذين النقيضين استطاع أن يمدَّ العبارةَ بشحنة من القوة الحركية التي ولّدت ذاك الإيقاع الخفي الذي اهتزّ له الوجدان طرباً وتأثراً.

- «كتب خالد بن الوليد إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه من دومة الجندل يستأمره في أمر العدو؛ فوقّع إليه: ادنُ من الموت توهب لك الحياة»[1]. فهاتان الثنائيتان الخالدتان هما عنصرا الوجود، والجمع بينهما هو جمع لإرث كل مفردة بِسِماتها وإيقاعها، ولهما معاً في سياق التوقيع إيقاع جديد، هو إيقاع من يجمع بين الفرح والحزن، بين البقاء والفناء، بين الحضور والغياب، بين الحسيّ المتناغم والحسيّ الجنائزي. كل هذه المعاني المتضادة جعلت التوقيع ذا بنية إيقاعية ودلالية متكاملة في الوقت الذي تغيب فيه القافية لانعدام ضروراتها.

ويزداد التوقيع حُسْناً ويتسع مداه عندما ندخل في أسلوب المقابلة؛ لأن التناغم والإيقاع يزداد ثراءً وحُسناً متجاوزاً نطاق الثنائية الواحدة إلى أكثر من ذلك.

ومن أمثلتها:

- وقّع المهدي «إلى رجل من بطانته استوصله: ليت إسراعَنا إليك يقوم بإبطائنا عَنك»[2].

فهذا التقابل والتناظر بين:

إسراعنا - إبطائنا

إليك - عنك

(1) خاص الخاص ص86.

(2) العقد الفريد 213/4، وجمهرة رسائل العرب 432/4.

وبناؤهما على المواجهة أضاف إليها خاصية لا توجد في الطباق. فنحن نشعر بأثرها اللفظي والمعنوي في سبك الأسلوب سبكاً قوياً وإظهاره في صورة لطيفة تأسر الأسماع، وتخلب الألباب بإيقاعها الأخّاذ، وكلماتها المتوازنة.

كلّ هذا ولّد إيقاعاً جديداً، هو إيقاع الحركة المتمثل بالحيوية والاندفاع، ثم يأتي بعد ذلك إيقاع السكون المتمثل بالإبطاء. ثم تُضاف إلى ذلك فاعلية حركية جديدة هي فاعلية الاقتراب منه، وفاعلية التأخير عنه، المتمثلة في النقيضين (إليك) و(عنك) ليخلق في وعينا انسجاماً غنائياً منتظماً انتظاماً صارماً، ودليل ذلك أننا لو اكتفينا بالعبارة الأولى، وقلنا: (ليتنا نسرع إليك) أو (ليت إسراعنا إليك قائم) لما تحقق ذاك الجرس الخفي، ولضاع خيرٌ كثير من حضوره وجمالياته.

- وقّع عمرو بن مَسْعَدَة بين يدي جعفر بن يحيى البرمكي في ورقة يطلب فيها غلمانه زيادة في رواتبهم: «قليل دائم خيرٌ من كثير منقطع»[1].

فحين قابل بين هاتين الثنائيتين:

قليل - كثير

دائم - منقطع

أشعرنا بذلك الإيقاع المتولّد من التنافر بين معنيين إلى حدّ الاختلاف التامّ في الدلالة، فالتقابل بين (القليل) و (الكثير) وبين (دائم) و(منقطع) أحدث أثراً صوتياً خفياً له قيمته، هو إيقاع الثابت القليل المرغوب فيه، في مقابل الكثير المنقطع المرغوب عنه، وهذا الإيقاع ما كان ليظهر ويثير فينا من نوازع القبول ما أثاره لولا ظهور نقيضه. ولا يحدثُ شيءٌ من هذا إن تغيّرت الجمل عن نظمها المتقابل.

(1) جمهرة رسائل العرب 459/4.

- وقّع عبد الملك بن مروان «في كتاب مُتَنَصّح: إن كنت صادقاً أثبنـــاك، وإن كنـــت كاذباً عاقبناك، وإن شئت أقلناك»[1]. فقابل بين:

صادقاً - كاذباً

أثبناك - عاقبناك

فالقدرة على إحداث هذه الأفعال المتباعدة وما يصدر عنها من تناغم خفي يستميل إليه المتلقي، ويستكين إليه، ويُسلِّم للقائل قوله، وينقاد إليه.

ويزداد الإيقاع الخفيِّ حضوراً عندما يأتي الطباق سلبياً؛ فيلتقـــي بـــذلك العامـــل الحسيّ المادي المتمثّل بإعادة اللفظ منفياً بالعامل الروحي المتمثّل في إبراز المفارقـــة، وبذلك ينشأ إيقاع مزدوج يمدُّ النصّ بدفعات متوالية من القوة والحركة, ومن أمثلته:

- وقّع هارون الرشيد «في كتاب خزيمة بن خازم، إذ كتب إليه أنه وضع فيهم السيف حين دخل أرض إرمينية: لا أمَّ لك تقتل بالذنب من لا ذنب له»[2].

- ووقّع زياد «في قصة محبوس: التائب من الذّنب كمن لا ذَنْبَ له»[3]. فجاء الطبـــاق بين طرفين منفيين معاً، ولو كان الآخر مثبتاً ما وجدت المطابقة.

ولا يعني هذا أن طباق السلب هو إثبات ونفي، بل هو «حدث يقع في إطار معين، ويكون له صداه ونتائجه، ثم يعود ولا (يقع) في إطار آخر، وغالباً مـــا يُتوقـــع منـــه الحدوث ولكن لا يحدث، وهو حين لا يحدث يُثبت شيئاً وحين يحدث ينفي شيئاً»[4].

(1) جمهرة رسائل العرب 578/2.

(2) العقد الفريد 214/4، وجمهرة رسائل العرب 435/4.

(3) العقد الفريد 217/4، وجمهرة رسائل العرب 588/4.

(4) البديع في شعر شوقي /268.

ويتوالى طباق السلب ليحقق حضوره في التوقيعات، فقد «كتبَ إلى عبد الله بن المعتز قَهْرَمانه (الوكيل لما تحت يده) ينسب وكيله إلى الخيانة والسّرقة، ويستأمره في الاستدلال به؛ فوقّع في رقعته: أغنِ من ولّيْتَه عن السَّرقة، فليس يكفيك من لم تكفه»[1]. فطابق بين (يكفيك) و(لم تكفه)، فتحقّق بذلك الطباق بين حَدثين أحدهما وقع والآخر لم يقع.

وقد تتكاثف أشكال (الطباق) لنقع على نوعين مختلفين من أنواعه في توقيع واحد. فقد وقّع مروان بن محمد في كتاب نصر بن سيّار: الحاضر يرى مالا يرى الغائب فاحسم الثؤلول»[2].

فجاء الطباق الإيجابي بين: (الحاضر) و(الغائب)، والطباق السلبي بين (يرى) و(لا يرى).

كل هذا ليؤكّد حضور (الطباق) الفاعل في التوقيعات، وليثبت مهارات الموقعين اللغوية والأدبية والبلاغية.

ترشيح الطباق:

والأمر اللافت للنظر في التوقيعات أن الطباق الذي استخدمه الموقّعون كثيراً ما أتى مقترناً بفنون بديعية أخرى، فاكتسب التوقيع بذلك جمالاً وبهاءً، وإلى ذلك ذهب البلاغيون ومنهم ابن حجة الحموي الذي رأى أنّ المطابقة تزداد حُسناً «إن رُشحت بنوع من أنواع البديع تشاركه فيه البهجة والرونق»[3]. ولا يعني هذا «أن المطابقة حينما تأتي وحدها من غير ترشيح بفن آخر لا قيمة لها؛ بل لها قيمتها، لأن التضاد

(1) جمهرة رسائل العرب 463/4.

(2) انظر العقد الفريد 210/4، وجمهرة رسائل العرب 585/2، والثّؤلول: الحبَّةُ تظهر في الجلد، والمراد: اقتل العدوّ واقضِ على الفتنة.

(3) انظر خزانة الأدب 160/1- 161.

نفسه يؤدي إلى إيضاح المعنى وتقريب الصورة... وقد جاءت في كثير من الكلام مجردة وأدّت دورها في التعبير»[1]، ومن أبرز المحسنات اللفظية التي التقت بالطباق:

1- الجناس:

وقّع زياد «في قصة رجل شكا إليه عُقوق ابنه: ربما كان عُقوق الولد من سوء تأديب الوالد»[2]، فطابق بين (الولد) و(الوالد)، وبينهما كذلك جناس غير تام واقع في عدد الحروف.

ومثله توقيع الصاحب بن عَبّاد: «دارنا خان يدخلها من وفى ومن خان»[3]. فطابق بين (وفى) و(خان)، وجانس جناساً تاماً بين (خان) الاسم، و(خان) الفعل.

وتوقيع «الحسن بن سهل في قصة متظلّم: يُنظر فيما رفع، فإنّ الحق مُتّبَعٌ وإلاّ فشأنُ السليم دواء السقيم»[4]. فطابق بين (السليم) و(السقيم)، وجانس بينهما جناساً غير تام واقع في نوع الحروف.

2- السجع:

- وقّع هارون الرشيد إلى صاحب المدينة: ضع رجليك على رقاب أهل هذا البطن فإنّهم قد أطالوا ليلي بالسُّهاد، ونفوا عن عيني لذيذ الرّقاد»[5]. فطابق بين (السهاد)

(1) فنون بلاغية/ 274.
(2) العقد الفريد 217/4، وجمهرة رسائل العرب 588/2.
(3) خاص الخاص ص92- 93، وانظر مناسبة هذا التوقيع ص18 من هذا البحث.
(4) العقد الفريد 220/4، وجمهرة رسائل العرب 451/4.
(5) العقد الفريد 214/4، وجمهرة رسائل العرب 436/4.

و(الرقاد)، وبين العبارتين سجع مرصّع باتفاق كلمة (السهاد) و(الرقاد)، لأن الفاصلتين اتفقتا بالوزن والقافية.

- وتوقيع الحسن بن سهل ذي الرياستين «في رقعة رائد: قد أمرنا لك بشيءٍ هو دون قَدْرك في الاجتهاد، وفوق الكفاية مع الاقتصاد»[1]. فطابق بين (دون) و(فوق)، وحقّق السجع في (الاجتهاد) و(الاقتصاد)، وهو من النوع المتوازي، لأن الفاصلتين اتفقتا في الوزن والقافية.

- ومنه أيضاً توقيع يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان «إلى صاحب خراسان في المُسوّدة: نجم أمرٌ أنت عنه نائم، وما أراك منه أو منِّي بسالم»[2]. فطابق بين (منه) و(مني)، وفيه سجع متوازن، حيث اتفقت القرينتان (نائم) و(سالم) في التقفية والوزن.

3- الموازنة:

وقّع مروان بن محمد إلى «هُبيرة أمير خراسان: الأمر مضطرب، وأنت نائم وأنا ساهر»[3]. فطابق بين (نائم) و(ساهر)، ثم إن القرينتين اتفقتا بالوزن دون القافية فبينهما موازنة.

ومنه توقيع مروان بن محمد إلى نصر بن سيّار في أمر أبي مسلم: «تحوّل الظاهر يدلُّ على ضعف الباطن، والله المستعان»[4]. فكلمتا (الظاهر) و(الباطن) اللتان هما محور هذا التوقيع فيهما طباق، وبينهما موازنة، ثم تأتي العبارة الثالثة (والله المستعان) لتجعل بين الجملتين الثانية والثالثة سجعاً مطرفاً، إذ اتفقت القرينتان بالقافية دون الوزن. وقّع «جعفر بن يحيى البرمكي: الخَراج عمودُ المُلْك وما استُغْزِرَ بمثل

(1) العقد الفريد 220/4، وفي رواية أخرى (دون قدرك في الاستحقاق). وعندها لا شاهد هنا فيها.
(2) العقد الفريد 210/4، وجمهرة رسائل العرب 584/2.
(3) العقد 210/4، وجمهرة رسائل العرب 584/2.
(4) العقد210/4، وجمهرة رسائل العرب 584/2.

العدل وما استُنْزِرَ بمثل الجور»[1]. فقابل بين (استغزر) و(استنزر)، وبين (العدل) و(الجور)، وفي العبارتين موازنة لاتفاق القرينتين بالوزن دون القافية.

4 - العكس والتبديل: وقّع يوسف بن القاسم: «إنّ إساءة المُحْسِن أن يكُفَّ عنك إحسانَه، وإحسانَ المسيء أن يكُفَّ عنك إساءَته، وابُعْدَ ما بينهما»[2].

ومنه «كتب عَمْروُ بن مَسْعَدة إلى ضَمْرَة الحَرُورِيّ كتاباً، فنظر فيه جعفر بن يحيى فوقّع في ظهره: إذا كان الإكثار أبلغَ كان الإيجاز مقصرّاً، وإذا كان الإيجاز كافياً كان الإكثار عِيّاً»[3]. فالتوقيع مكوّن من عبارتين، والعبارتان مبنيتان على المقابلة، وفي كل عبارة مقابلة، فهناك تضاد بين (الإكثار) و(الإيجاز) وبين (أبلغ) و(مقصرا) بالنظر إلى أن (مقصراً) يُقصد بها التقصير عن البلاغة فيكون بينهما إيهام التضاد.

وفي العبارة الثانية مقابلة اثنين باثنين أيضاً، فهناك تضاد بين (الإكثار) (الإيجار) وبين (كافياً) و(عياً) بالنظر إلى أن العيّ يعني الحشو؛ أي زيادة اللفظ على المعنى لغير فائدة، وبذلك يتحقق التضاد بينها وبين (كافياً).

والقول نفسه يسري على توقيع يوسف بن القاسم «إلى عامل: إن كنت مُنْصفاً من نفسك فلِم تظلِمُ لغيرك؟ وإن ظلمتَ لغيرك فكيف تنتصف من نفسك؟»[4].

وبعدُ، فيتأكد لنا من التقاء المُحسن اللفظي بالطباق حضور التوقيعات الفاعل وأثرها في إحداث المتعة الفنية والإبهار الجمالي، فتُلحظ المنافرة في الطباق والمقابلة،

(1) جمهرة رسائل العرب 447/4.
(2) جمهرة رسائل العرب 456/4.
(3)جمهرة رسائل العرب 448/4.
(4) نفسه 455/4.

كما تُلحظ الموافقة في السجع والجناس والموازنة وغيرها في سبيكة متلاحمة العناصر، وفي سياق ينساب في سلاسة لا يشوبه تكلّف ولا يعتريه تصنّع.

ونختم القول: إن الطباق أتى في كلام الموقّعين استجابة لفطرتهم الصافية، وسليقتهم المُحَكمة، من دون قصد إليه أوشغف به، وهذا يؤكد أنهم كانوا متمكنين من الأدوات اللفظية والمعنوية التي لا يتسنى الحصول عليها لغير أعلام اللغة ورجالها المتمرسين، وظهر بوضوح حضور (الطباق) في التوقيعات، لكن هذا الحضور لم يتعمّده الموقّعون، فلم يكن بقصد الزُخرف والزينة، بل من أجل مهمات محددة منها: إثبات قضية ما أو نفيها، أو تأكيد أنه نوع من التوازن الضروري لاستمرار الكون والكائنات، وأتى أيضاً لنفي مزية أحد الركنين أو تقبيحها لإظهار قيمة الركن الآخر وجماله... وقد ظهرت قيمة ما يحققه من تنشيط الفعالية الإدراكية، وخلق نوع من التنغيم الخفي والتوازن المنسجم في العبارة. ثم إن الطباق رُشح بكثير من المحسنات اللفظية في سياق واحد، وقد ظهر تعاضد اللفظ والمعنى لأداء الغرض المقصود ولإحداث الجمال والإمتاع في التوقيع.

وأخيراً نقول: إنّ التوقيعات نصوص جَمعت بين حُسن الصياغة وخطر المضمون من ناحية وفضل صاحبه وسموّ ما يدعو إليه من ناحية أخرى، وهي بذلك تعدو دعوة للناس إلى تعلّمها وتمثلها والاحتكام إليها.

المصادر والمراجع

- الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان, تاريخ بلا.
- البديع في شعر شوقي، د. منير سلطان، منشأة المعارف، الإسكندرية، ط2، 1992م، تاريخ بلا.
- بديع القرآن لابن أبي الإصبع المصري، تقديم حنفي محمد شرف- دار نهضة مصر.
- البلاغة فنونها وأفنانها (علم البيان والبديع)، د.فضل حسن عباس، دار الفرقان للنشر والتوزيع ط1، 1407هـ- 1987، عمان – الأردن.
- تاج العروس، محمد مرتضى الزَّبيدي، منشورات دار مكتب الحياة، بيروت- لبنان.
- تاريخ الترسل النثري عند العرب في صدر الإسلام، د.محمود المقداد، دار الفكر بيروت ودمشق ط1، 1413هـ- 1993م.
- توضيح البديع في البلاغة، د. محمد طه هلالي، ط1، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية- مصر، 1997م.
- الجامع الكبير، لضياء الدين بن الأثير الجزري، تح: د. مصطفى جواد ود. جميل سعيد، مطبعة المجمع العلمي العراقي، 1375هـ- 1956م.
- جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة، تأليف أحمد زكي صفوت، ط1، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده- مصر، 1306هـ- 1937م.
- خاص الخاص، لأبي منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي النيسابوري، قدّم له حسن الأمين، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت لبنان، 1986م.
- خزانة الأدب وغايةُ الأرب، لابن حجة الحموي، شرح عصام شعيتو، دار ومكتبة الهلال، ط2، بيروت، 1991م.
- الشعر والفن والجمال، رضوان الشّهال، ط دار الأحد (البجيري إخوان)، بيروت.

- صبح الأعشى في صناعة الإنشا، للقلقشندي، دار الفكر، دمشق، ط1، 1987م.
- العقد الفريد لأحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسيّ، شرحه وضبطه أحمد أمين وآخرون، الناشر: دار الكتاب العربي 1401هـ- 1983م.
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه لأبي الحسن بن رشيق القيرواني، تح: د.محمد قرقزان- دار المعرفة- بيروت- لبنان.
- فنون بلاغية (البيان والبديع)، د.أحمد مطلوب، دار البحوث العلمية، ط1، 1395هـ- 1975م.
- في الشعرية، كمال أبو ديب، الناشر: مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت- لبنان، ط1، 1987م.
- القصيدة العربية الحديثة بين البيئة الدلالية والبنية الإيقاعية، د. محمد صابر عبيد، اتّحاد الكتاب العرب- دمشق – 2001م.
- لسان العرب لابن منظور، تصحيح أمين محمد عبد الوهاب ومحمد الصادق العبيدي، دار إحياء التراث العربي ومؤسسة التاريخ العربي- بيروت- لبنان،ط1، 1416هـ- 1995م.
- معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكريا، ت: عبد السلام محمد هارون، طبعة اتحاد الكتاب العرب، 1423هـ- 2002م.
- مفتاح العلوم، يوسف بن محمد بن علي السكّاكّي، تح: د.عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان.
- المفصّل في علوم البلاغة العربية، د. عيسى علي العاكوب، منشورات الكتب والمطبوعات الجامعية، حلب، 1421هـ- 2000م.
- مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون، دار الفكر، ط2، 1408هـ- 1988.
- منهاج البلغاء وسراج الأدباء، صنعة حازم القرطاجني، تح: محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الغرب الإسلامي- ط2، بيروت- لبنان، 1986م.

- الموت في الديانات الشرقية، حسين العودات، المطبعة العلمية بدمشق- ط1، 1406هـ- 1986م.
- النثر في العصر العباسي، د. هاشم منّاع ود.مأمون ياسين، دار الفكر العربي، بيروت- لبنان، ط1، 1993م.
- نقد الشعر، لأبي الفرج قدامة بن جعفر، تح: كمال مصطفى، ط3، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1978م.
- وشي الربيع بألوان البديع في ضوء الأساليب العربية، د. عائشة فريد، دار قباء للطباعة والنشر، 2000م.
- يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، لأبي منصور بن محمد الثعالبي النيسابوري، شرح وتحقيق مفيد محمد قميحة- ط1، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، 1403هـ- 1983م.

تاريخ ورود البحث إلى مجلة جامعة دمشق 2011/7/18.